240803 ـ هل ترك قيام الليل يخل بوصف التقوى ؟

السؤال

هل من لا يقوم الليل ليس بتقي ؟ لأن من صفات المتقين في القرآن الاستغفار بالأسحار.

ملخص الإجابة

وخلاصة الجواب :

ـ أن قيام الليل من صفات المتقين ، ومما يعين العبد على تحقيق تقوى الله .

ـ أن ترك قيام الليل لا ينفي عن العبد اتصافه بتقوى الله الواجبة .

ـ أن من ترك قيام الليل فقد فاته شيء من تقوى الله المستحبة .

والله أعلم.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

التقوى من (وقى) ، وحقيقتها أن تجعل بينك وبين ما تخافه وتحذره وقاية ، قال ابن رجب الحنبلي في " جامع العلوم والحكم " (1 / 398) : " وأصل التقوى أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه ، فتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه ، وقاية تقيه من ذلك ؛ وهو فعل طاعته ، واجتناب معاصيه.
وتارة تضاف التقوى إلى اسم الله عز وجل، كقوله تعالى: (واتقوا الله الذي إليه تحشرون) [المائدة: 96] ، وقوله: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) [الحشر: 18] ، فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه وتعالى، فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يُتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي ، قال تعالى: (ويحذركم الله نفسه) [آل عمران: 28] ، وقال تعالى: (هو أهل التقوى وأهل المغفرة) [المدثر: 56] ، فهو سبحانه أهل أن

يخشى ويهاب ويجل ويعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه ، لما يستحقه من الإجلال والإكرام ، وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش ، وشدة البأس " انتهى.

وقال ابن القيم في " الرسالة التبوكية " (1 / 13): " وأما التقوى : فحقيقتها العمل بطاعة الله ، إيماناً واحتساباً، أمراً ونهياً، فيفعل ما أمر الله به ، إيمانا بالأمر ، وتصديقا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه ، إيماناً بالنهي ، وخوفاً من وعيده ، كما قال طلق بن حبيب: " إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى " قالوا: وما التقوى؟ قال: " أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله , وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله " وهذا أحسن ما قيل في حد التقوى" انتهى.

وأما وصف الله تعالى للمتقين في قوله (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ . كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ) الذاريات/ 15 ـ 17.

فليس في الآية ما يشير إلى أن قيام الليل شرط في التقوى الواجبة ؛ بل كل ما فيها أن قيام الليل من صفات المتقين ، وهذا أمر واضح لا إشكال فيه ؛ لأنه إذا كانت التقوى فعل المأمورات وترك المنهيات ، فإن قيام الليل مما أمر الله به ، أمر استحباب ، ولأن الصلاة من أعظم ما يعين العبد على أمور دينه .

قال تعالى : (وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ) البقرة/ 45 .

قال السمعاني في تفسيره (1 / 74) : " استعينوا بهذين (الصبر والصلاة) على الدِّين ؛ لتقووا على الإقبال على الآخرة والإعراض عن الدنيا" انتهى.

وفي جانب ترك المنهيات والمحرمات خصوصاً قال الله تعالى : (اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ) العنكبوت/ 45 .

يقول ابن تيمية – رحمه الله تعالى – في " الاستقامة " (1 / 318) : " فَإِن الصَّلَاة كَمَا ذكر الله تَعَالَى (تنْهى عَن الْفَحْشَاء وَالْمُنكر) وَهَذَا أَمر مجرب محسوس ؛ يجد الْإِنْسَان من نَفسه أَن الصَّلَاة تنْهى عَن الْفَحْشَاء وَالْمُنكر" انتهى.

والتقوى تنقسم إلى : تقوى واجبة ، وتقوى مستحبة .

فالتقوى الواجبة هي فعل الواجبات ، واجتناب المحرمات ؛ ثم يكون أداء النوافل ، من الصيام ، والقيام والذكر ، من جملة التقوى المستحبة ، والكمال المستحب في الدين ، والإيمان ، والتقوى ؛ فإن كل ذلك مما يزيد وينقص ، كما هو معتقد أهل السنة والجماعة .

روى البيهقي في " الزهد الكبير " (964) : " أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، كَانَ يَقُولُ: لَيْسَ تَقْوَى اللَّهِ بِصِيَامِ النَّهَارِ، وَلَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَالتَّخْلِيطِ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ تَقْوَى اللَّهِ تَرْكُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَأَدَاءُ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ ، فَمَنْ رُزِقَ بَعْدَ ذَلِكَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ إِلَى خَيْرٍ" .

فمن أتى بقيام الليل ، وصيام النهار : زاد إيمانه وتقواه .

ومن أخل بذلك ، نقص من إيمانه وتقواه ، بحسب ما نقص وضيع من ذلك ؛ فإن الإيمان يزيد ، حتى لا منتهى له ، وينقص ، حتى لا يكون منه شيء ؛ بحسب ما يجيء العبد به من الطاعات والمعاصي .

قال الصنعاني رحمه الله :

" وأما المتقون : فإن الله تعالى بين مَن هم ، وفسرهم في صدر سورة البقرة ، حيث قال: (هُدىً لِلْمُتَّقِينَ) [البقرة:2] ؛ كأنه قيل من هم؟ قال: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) [البقرة:2-3] .

فوصفهم بأنهم من اتصف بهذه الصفات الست، وهي صفاتٌ مركبة من أجزاء الإسلام ، ومن أجزاء الإيمان، كما في آية الأنفال ، حيث ذكر الله تعالى صفات المؤمنين حقاً ، مركبة من أجزاء النوعين . وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال في حديث جبريل ، وقد قال له: ما الإسلام يا محمد؟ قال: (أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً) ؛ فجعل إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أجزاء الإسلام.

فالآيتان أشارتا بذكر بعض أجزاء الإسلام ، وهما إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، إلى اعتبار الإسلام بجميع أفراده، إلا أنهما خصتا أعظم أجزائهما البدنية والمالية ، ويعلم الصوم والحج بالسنة التي وردت بياناً للقرآن، فإن بيانه بتفصيل مجمله، وتقييد مطلقه، وتفسير مبهمه ، وغير ذلك .

وأشارتا بالإيمان وزيادته إلى اعتبار الإيمان بأجزائه، فأفادتا أنه لا يكون العبد مؤمناً إلا باستكماله لخصال الإسلام والإيمان .

وأشارت آيةُ البقرة إلى أن المتقين هم الجامعون بين الإسلام بقوله: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) [البقرة:3] ، والإيمان بقوله: (وَالذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ) الآية.

وإذا عرفت هذا ، فقد بين القرآن أولياء الله بياناً شافياً : أنهم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى، ثم بين تعالى الإيمان وأجزاءه، والتقوى وأجزاءها.

ثم بعد تقرير هذا ؛ فلا ريب أن رتبة الإيمان تتفاوت إلى زيادة ونقصان ، حتى ينتهي الإيمان إلى مقدار مثقال الخردلة، كما وردت به الأحاديث النبوية الثابتة الصحيحة ، وقد قرر في محالِّه، كما أن رتبة التقوى تتفاوت " انتهى ، باختصار يسير من "الإنصاف في حقيقة الأولياء" للصنعاني (6-7) .

وفي النهاية ننبه على فضل قيام الليل وأنه من أفضل القربات وأجل الأعمال الصالحات كما سبق بيانه في الفتوى رقم : (50070).